المسيح .. وحقائق الحكمة الإلهية

تأليف
رفاعي سرور

الطبعة الأولى

١٤٢٨-١٤٢٩هـ

دار هادف

المسيح .. وحقائق الحكمة الإلـهية

أولاً: ما هي الحكمة من خلق عيسى من غير أب؟

ثانيًا: ما هي الحكمة من التشبيه؟

ثالثًا: ما هي الحكمة من رفع عيسى؟

رابعًا: ما هي الحكمة من نزول عيسى؟

خامسًا: ما هي الحكمة من اختصاص عيسى بالمساءلة يوم القيامة؟

وهناك أساسٌ عامٌّ يُذكر قبل تفسير الحكمة في هذه الأفعال الإلـهية بصورة تفصيلية ..

وهو أن الحكمة في جميع هذه الأفعال مرتبطة ببعضها ارتباطًا يجعلها حكمة واحدة .. !

فعندما نفسر الحكمة من التشبيه.. نجدها من أجل الرفع ..

وعندما نفسر الحكمة من الرفع.. نجدها من أجل النزول ..

وعندما نفسر الحكمة من النزول.. نجدها من أجل علامات الساعة..

أولاً: الحكمة من خلق عيسى من غير أب

والحكمة من خلق عيسى من غير أب لها بُعدان أساسيان:

- المشيئة ..

- القدرة ..

فالمشيئة الإلهية المطلقة هي الحكمة الثابتة في الآيات التي بشَّر الله فيها مريم بولادة عيسى: ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٤٧].

ومع المشيئة تكون القدرة: ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٤٧].

والمعالجة الحقيقية لولادة عيسى عليه السلام لا تتم إلا بإدراك الدلائل الكاملة لقضية القدرة الإلهية على الخلق..

الجانب الأول: التنوع «القسمة الرباعية»

فمن أهم دلائل القدرة الإلهية.. التنوع في الخلق، وفيه يقول ابن القيم: (فتأمل كيف دل اختلاف الموجودات وثباتها، واجتماعها فيما اجتمعت فيه، وافتراقها فيما افترقت- على إله واحد.. ودلت على صفات كماله ونعوت جلاله سبحانه وتعالى).

وللتنوع قاعدة عامة تعرف باسم «القسمة الرباعية» وهي التي أشار إليها ابن القيم في تنوع الخلق وتنوع عملهم، فيقول عن تنوع الخلق: (ولهذا خلق سبحانه النوع الإنساني أربعة أقسام:

أحدها: لا من ذكر ولا أنثى، وهو خلق أبيهم وأصلهم آدم.

والثاني: من ذكر بلا أنثى، كخلق أمهم حواء من ضلع من أضلاع آدم، من غير أن تحمل بها أنثى، ويشتمل عليها بطن.

والثالث: خلقه من أنثى بلا ذكر، كخلق المسيح عيسى ابن مريم.

والرابع: خلق سائر النوع الإنساني من ذكر وأنثى.

وكل هذا ليدل على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وكمال حكمته، وأن الأمر ليس كما يظنه أعداؤه الجاحدون له والكافرون به؛ من أن ذلك أمر طبيعي لم يزل هكذا ولا يزال، وأنه ليس للنوع أب ولا أم، وأنه ليس إلا أرحام تدفع وأرض تبلع، وطبيعة تفعل ما يُرى ويُشاهد، ولم يعلم هؤلاء الجهال الضلال أن الطبيعة قوة وصفة فقيرة إلى محلها، محتاجة إلى فاعل لها، وأنها من أدل الدلائل على وجود أمره بطبعها وخلقها، وأودعها الأجسام وجعل فيها هذه الأسرار العجيبة، فالطبيعة مخلوق من مخلوقًاته، ومملوك من مماليكه وعبيده، مسخرة لأمره تعالى، منقادة لمشيئته، ودلائل الصنعة وأمارات الخلق والحدوث وشواهد الفقر والحاجة شاهدة عليها بأنها مخلوقة مصنوعة، لا تخلق ولا تفعل ولا تتصرف في ذاتها ونفسها، فضلاً عن إسناد الكائنات إليها).

وقد أوضحت سورة النساء معنى القسمة الرباعية وعلاقته بخلق عيسى ابن مريم، فكان الموضوع الأساسي لها هو تحديد المقتضيات الشرعية لخلق الناس رجالاً كثيرًا ونساءً..

حيث أوضحت أول آية فيها ثلاثة أنواع من الخلق البشري..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ ﴾.. آدم.. الذي خُلق من غير أب وأم.. ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾.. حواء.. التي خُلقت لأب من غير أم..

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].. جميع البشر.. المخلوقين من أب وأم..

ليبقى عيسى المخلوق من أم من غير أب..!!

فتمتد السورة كلها بعد ذلك لتحديد المقتضيات الشرعية لخلق الناس رجالاً كثيرًا ونساءً، فتعالج قضايا الزواج واليتامى والمواريث والطلاق والمحرمات في الزواج، وبصورة أساسية أحكام المواريث التي تدور السورة كلها حولها.

والدليل المباشر على هذا التفسير هو تأخير حكم من أحكام المواريث «الكلالة»، وهو حالة أن يموت رجل ليس له ولد، ثم ارتباط ذكر الحكم بذكر عيسى ابن مريم، ومن هنا جاءت النهاية -كما جاءت البداية- دليلاً على ارتباط موضوع السورة بقضية عيسى ابن مريم: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٧٢].

إلى قوله تعالى: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ [النساء: ١٧٦].

وحقيقة التنوع -كدليل على القدرة الإلهية- يمثل بُعدًا من أبعاد القدرة؛ لأن القسمة الرباعية قائمة على التنوع البشري من ذكر وأنثى، وأن هذا التنوع هو أساس السلوك البشري من ناحية الخير والشر بدليل قول الله عز وجل:

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ * إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ * فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ * وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴾ [الليل: ١-١٠].

فهي قاعدة كونية عامة في النوع الإنساني وفي السلوك الإنساني..

- فمن ناحية النوع الإنساني يقول الله عز وجل: ﴿ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠].

- ومن ناحية السلوك الإنساني تظهر هذه القسمة في عدة جوانب..

ففي جانب «الإخلاص، والمتابعة» يقول ابن القيم في مدارج السالكين: (والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أربعة أقسام:

أحدهما: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة للأنبياء.

والثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة.

والثالث: من هو مخلص في عمله، لكنه على غير متابعة.

والرابع: من أعماله على متابعة الأمر، بغير إخلاص لله).

وفي جانب «**العلم، والعمل**» يأتي قول الله عز وجل: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ

إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥].

فقسمت الآية الناس إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: الأيدي: القوة في تنفيذ الحق، والأبصار: البصائر في الدين، والأنبياء هم أشرف الأقسام في الخَلق.

والقسم الثاني: عكس هؤلاء؛ من لا بصيرة له في الدين، ولا قدرة على تنفيذ الحق، وهم أكثر الخَلق.

والقسم الثالث: من له بصيرة بالحق ومعرفة به؛ لكنه ضعيف، لا قوة له على تنفيذه والدعوة إليه، وهذا حال المؤمن الضعيف.

والقسم الرابع: من أعماله على متابعة الأمر بغير إخلاص لله.

وفي جانب «**العبادة، والاستعانة**» يقول الإمام ابن القيم: (وسر الخلق والأمر، والكتب والشرائع، والثواب والعقاب- انتهى إلى هاتين الكلمتين: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]).

إلى أن يقول رحمه الله: (فالناس في هذين الأصلين «**العبادة والاستعانة**» أربعة أقسام:

- **أجلُّها وأفضلها**: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها.

- ومقابل هؤلاء **القسم الثاني**: وهم المعرِضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة ولا استعانة.

- وأما **القسم الثالث**: فهو من له نوع عبادة بلا استعانة..

- وأما **القسم الرابع**: فهو من توكل على الله، واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه وطلبها منه وأنزلها به؛ فقضيت له، سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهًا عند الخلق أو أحوالاً؛ من كشفٍ وتأثيرٍ وقوة وتمكين، ولكن لا عاقبة له، فإنها من جنس الملك الظاهر).

الجانب الثاني: المقدمات «يحيى وعيسى»

ومن دلائل القدرة الإلهية.. المقدمات التي تدل عليها..

فقد جعل الله -بمقتضى رحمته- خلق يحيى مقدمة لخلق عيسى، ومعينًا للناس على فهم حقيقة الإعجاز في خلق عيسى من غير أب، فكانت آية خلق يحيى من جنس آية خلق عيسى، وهي إظهار قدرة الله على خلق ما يشاء.

وكان التجانس في خلق يحيى وعيسى هو أساس معنى بُشْرى يحيى بعيسى.. والتجانس بين البُشْرى والمبشَّر بها قاعدة قدرية ثابتة، جاء فيها قول الله سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ [الأعراف: ٥٧]، **فلما كانت الرياح بُشْرى بين يدي المطر دل ذلك على أن البُشْرى من جنس المبشَّر به، الأمر الذي انطبق على بُشْرى يحيى بعيسى، باعتبار أن عيسى كان بكلمة الله التي ولد بها من غير أب.. وأن ولادة يحيى تقارب ولادة عيسى ومن جنسها، من حيث عدم وجود صلاحية السبب في الولادة بالنسبة ليحيى، كما قال زكريا:** ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ [آل عمران: ٣٧]، وعدم وجود السبب أصلاً بالنسبة لعيسى..!

والدليل على هذا الفهم.. هو الصيغة القرآنية للبُشْرى بعيسى: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٩]، فجاءت البُشْرى بولادة يحيى، بصفته مصدقًا بـ «كلمة من الله» عيسى، وكان هذا التصديق هو أول صفات يحيى في خبر البُشْرى التي بشر الله بها زكريا بولادته.

ومعنى بُشْرى يحيى بعيسى هو نفسه معنى بُشْرى عيسى برسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف: ٦].

وكما كان لخلق عيسى مقدمات تدل عليه.. كان خلق عيسى نفسه مقدمة لقدر إلهي أكبر، وهو الساعة.

الجانب الثالث: عيسى والساعة

والحقيقة أن بين عيسى والساعة ارتباطًا قرآنيًّا من خلال معنى الإرادة والمشيئة والقدرة الإلهية المطلقة، حيث ذُكر في القرآن تعبير ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ في ثمانية مواضع، أربعة متعلقة بعيسى ابن مريم، وأربعة متعلقة بقيام الساعة[١].

ولذلك كان خلق عيسى دليلاً على قدرة الله في الخلق، ودليلاً على

---

(١) تراجع هذه السياقات بالتفصيل في «نزول عيسى ضرورة قدرية».

الساعة، ودليلاً على الصراط؛ حيث اجتمعت كل هذه الدلائل في قول الله في سورة الزخرف: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٦٠-٦٤].

ثانيًا: الحكمة من التشبيه

ودليل حدوث التشبيه هو قول الله عز وجل: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ [النساء: ١٥٧].

أما الحكمة من التشبيه فهي متعلقة بأفعال الله التي يكون بها الإهلاك.. ومنها سُنَّة الاستدراج، ودليلها قوله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

وسُنَّة الاستدراج: هي الفعل الذي يقع من العبد؛ ليقع به العذاب المستحق، وهي داخلة ضمن السنن الأصلية للإهلاك: سُنَّة الإنذار.. سُنَّة الإمهال.. سُنَّة الاستدراج.. سُنَّة الاستحقاق.. سُنَّة الكشف.. سُنَّة الميعاد.. سُنَّة الإهلاك الفعلي.

ويفصِّل ابن القيم طريقة استحقاق الهلاك فيقول: (وتَحِقُّ كلمة الهلاك بإنزال الأمر والنهي، ثم إظهار قدر اتباعهم هوى أنفسهم، ثم قيام الحجة

عليهم بالعدل، ثم يكون العقاب بمثلهم)[٢].

(فَعادةُ الرب تعالى -المعلومة في خلقه- أنه حينما يتحتم هلاك قومٍ بمعاصيهم فإنه يُحدثُ سببًا آخر يتحتم معه الهلاك، ألا ترى: أنَّ ثمود لم يهلكهم بكفرهم السابق حتى أراهم الآيات المتتابعات، واستحكم بغيهم وعنادهم، فحينئذ أُهلكوا، وكذلك قوم لوط لما أراد إهلاكهم أرسل الملائكة إلى لوط في صورة الأضياف، فقصدوهم بالفاحشة.

وكذلك سائر الأمم، إن أراد الله هلاكها أحدث لهم بغيًا وعدوانًا، بحيث يأخذهم على أثره، وهذه عادته مع عباده عمومًا وخصوصًا، فيعصيه العبد وهو يحلُم، ولا يعاجله، حتى إذا أراد أخذه.. قيض له عملاً يأخذه بعقوبته، مضافًا إلى أعماله الأولى، فيظن الظان أن أخذه كان بذلك العمل وحده، وليس كذلك، بل حق عليه القول بذلك، وكان قبل ذلك لم يَحِق القول بأعماله الأولى، حيث عمل ما يقتضي ثبوت الحق عليه، ولكن لم يحكم به أحكم الحاكمين، ولم يمضِ الحكم، فإذا عمل بعد ذلك ما يقرر غضب الرب أمضى حكمه وأنفذه، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ ﴾ [الزخرف: ٥٥]..

وقد كانوا قبل ذلك أغضبوه بمعصية رسوله، ولكن لم يكن غضبه سبحانه قد استقر واستحكم عليهم، إذ كان بصدد أن يزول بإيمانهم، فلما أيس من إيمانهم تقرر الغضب واستحكم.. فحلت العقوبة، فهذا الموضوع من أسرار القرآن، ومن أسرار التقدير الإلهي).

ومن هنا كان حدث التشبيه هو السبب الذي قدره الله لوقوع الغضب

---

(٢) مدارج السالكين (١/١٦٧) .

على اليهود، فكان ادعاؤهم قتل المسيح له نفس دلالة المحاولة الفعلية التي وقعت على المشبه به، والتي استحق اليهود بها الغضب، ولذلك جاء هذا الادعاء ضمن أكبر الذنوب المحسوبة عليهم أمام الله سبحانه وتعالى؛ لأن هذا القول -بعد المحاولة الفعلية التي وقعت على المشبه- دليل على القصد التام من المحاولة، والإصرار على هذا القصد.

ودليل ذلك من كلام ابن القيم قوله: (فإذا أراد إهلاكهم ولا بد.. أحدث سببًا آخر يتحتم معه الهلاك)، وكان دليلها العام في القرآن هو قول الله: ﴿ **وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا** ﴾ [الإسراء: ١٦].

قال الإمام البغوي في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ * إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ** ﴾ [آل عمران: ٥٤-٥٥]:

(المكر من المخلوقين: الخبث والخديعة والحيلة، والمكر من الله: استدراج العبد، وأخذه بغتة من حيث لا يعلم، كما قال سبحانه: ﴿ **سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٨٢]، وقال الزجاج: مكر الله عز وجل: مجازاتهم على مكرهم، فسُمِّي الجزاء باسم الابتداء لأنه في مقابلته، كقوله تعالى: ﴿ **ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ** ﴾ [البقرة: ١٥]، وقوله: ﴿ **وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ** ﴾ [النساء: ١٤٢]، و**مكر الله تعالى خاصة بهم في هذه الآية، وهو إلقاؤه الشَبه على صاحبهم**[٣] **.**

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: (ليس عند النصارى واليهود علم

---

(٣) يراجع المسيح دراسة سلفية – فصل: الهيمنة بالتبيين النبوي.. للمؤلف .

بأن المسيح صُلب كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴾ [النساء: ١٥٧]، وأضاف الخبر عن قتله إلى اليهود بقوله: ﴿ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ١٥٧]، فإنهم بهذا الكلام يستحقون العقوبة؛ إذ كانوا يعتقدون جواز قتل المسيح، **ومن جَوَّز قتله فهو كمن قتله**، فَهُم في هذا القول **كاذبون** وهم **آثمون**.

وإذا قالوه فخرًا.. لم يحصل لهم الفخر؛ لأنهم لم يقتلوه..!، وحصل الوزر لاستحلالهم ذلك وسعيهم فيه، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما.. فالقاتل والمقتول في النار**» قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول..؟! قال: «**إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**»(٤) فجعل الحرص على القتل كالقتل نفسه.

وظنُّ من ظنَّ منهم أنه صُلِب.. لا يقدح في إيمانه إذا كان لم يحرف ما جاء به المسيح(٥)، بل هو مقر بأنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فاعتقاده بعد هذا أنه صُلِب لا يقدح في إيمانه؛ فإن هذا اعتقاد موته على وجه معين، وغاية الصلب أن يكون قتلاً له، وقَتْلُ النبي لا يقدح في نبوته، وقد قتل بنو إسرائيل كثيرًا من الأنبياء، قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا

---

(٤) أخرجه البخاري (٣١، ٦٤٨١، ٦٦٧٢) ، ومسلم (٢٨٨٨) كلاهما من حديث الأحنف بن قيس.

(٥) كلام الإمام هاهنا على من عاصر قضية الصلب واشتبهت عليه، أما بعد نزول القرآن ونفيه لعملية الصلب فلا يجوز هذا الاعتقاد.

مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]).

هذه هي قضية التشبيه.. سببٌ أحدثه الله لليهود؛ ليستحقوا به الغضب والعقوبة..

وكما ترك الله ثمود يذبحون الناقة.. ترك اليهود يرتكبون **محاولة** قتل عيسى..

لكنَّه سبحانه وتعالى قدَّر ألا يترك المسيح لليهود.. فكان لا بد من التشبيه..

كان لا بد من أن يأتي إنسان آخر في صورة المسيح، ويقتله اليهود فعلاً؛ فيستحقون الغضب والعقوبة.

فأصبح محكومًا عليهم عند الله أنهم قتلوه في حكم الله الشرعي؛ لقولهم:

﴿ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [النساء: ١٥٧].

والحكمة من التشبيه جاءت جامعة للحكمة من عقوبة اليهود ونجاة عيسى، وهما أمران متقابلان؛ لأن عقوبة اليهود لا تكون إلا بقتل عيسى، ونجاة عيسى لا تكون إلا بقتل الشبيه، فجمع الله بحكمته وقدرته بين الأمرين بالتشبيه.

وفي مسألة التشبيه.. يبقى قول الله عز وجل هو الحجة البالغة..

أما مناقشتها سلفيًّا فتتم من خلال عدة جوانب:

الجانب الأول: إسقاط شهادة اليهود

والمقرر بين المسلمين أن المشبه بالمسيح هو الذي صُلب، وأن عيسى عليه السلام رُفع، وأن جميع اليهود رأوا المشبه به وهو يُصلب، وأن تلاميذ المسيح هم وحدهم الذين رأوه يُرفع.

فكيف نغلِّب رؤية التلاميذ لعملية الرفع على رؤية جميع الخلائق على عملية الصلب..؟!

مع مراعاة أن المشبه به كان لا يختلف عنه، وأن كل من رأى المشبه به على الصليب معذورٌ في اعتقاده أن المسيح قد صُلب.

والحقيقة: أن علم الحديث -وهو من أَجَلِّ العلوم السلفية- هو الذي يحسِم المشكلة، وذلك بتعريفه للتواتر على أنه ليس بكثرة الطرق.. ولكن بالثقة في أطراف النقل، بحيث يتساوى أطراف التواتر في الثقة بهم، وبصدقهم في الأخبار.

وباعتبار كفر جميع اليهود والرومان ينتفي معنى التواتر وفقًا لقواعد الرواية وعلم الحديث، في الوقت الذي يثبت فيه معنى التواتر في رواية التلاميذ في الرفع؛ وذلك لأن شرط التواتر متوافرٌ في إيمان التلاميذ، وهو الأمر المفقود عند اليهود والرومان.. رغم كثرة عددهم وقلة عدد التلاميذ..!

ولهذا جاء إثبات التشبيه بعد إثبات فسق اليهود تأكيدًا لرد شهادتهم، حيث يقول ربنا عز وجل:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [النساء: ١٥٥].

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٦].

وكان كفرهم هو: ﴿ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ والبهتان هنا له اعتبار ضخم..

ذلك لأن الكفر يُسقط عَدالتهم.. وكذلك البهتان.. مما يسقط شهادتهم في قضية عيسى؛ فلا يؤخذ بشهادتهم إذا قالوا: إن المصلوب هو عيسى.

فالآيات تصف الواقع الذي كان عليه اليهود.. والذي انتهى بهم إلى التعامل مع المسيح بهذا الأسلوب..

قال ابن كثير: (هذا من الذنوب التي ارتكبوها؛ مما أوجب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى).

فقد كانوا يعيشون أحكامًا بالتحريم؛ عقوبة لهم على ظلمهم..

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾ [النساء:١٦٠، ١٦١].

والمثير حقًّا أن يأتي تقرير الضوابط الأساسية لقبول أو رد الشهادة في سورة المائدة مباشرة قبل مناقشة قضية المسيح عليه السلام..!

قال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ

ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦-١٠٨].

وهذه هي ضوابط الشهادة.. ثم يأتي بعقبها: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ * إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ . . ﴾ [المائدة: ١٠٩، ١١٠].

وهكذا يكون الإحكام القرآني.. أساسًا في التعامل مع قضية الشهادة والتشبيه.

الجانب الثاني: حكم شهادة الحواريين

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡ﴾ يقول الإمام ابن تيمية: (أضاف هذا القولَ إلى اليهود وذمهم عليه ولم يذكر النصارى؛ لأن الذين تولوا صلب المصلوب المشبه به هم اليهود، ولم يكن أحد من النصارى شاهدًا هذا معهم.

بل كان الحواريون **خائفين غائبين**، فلم يشهد أحد منهم الصلب وإنما شهده اليهود، وهم الذين أخبروا الناس أنهم صلبوا المسيح، والذين نقلوا أن المسيح صُلب من النصارى وغيرهم إنما نقلوه عن أولئك اليهود، وهم شُرَطٌ من أعوان الظلمة، لم يكونوا خلقًا كثيرًا يمتنع تواطؤهم على الكذب).

الجانب الثالث: حكم شهادة النصارى

والكتب الموجودة بين يدي النصارى هي الوثيقة التي تتضمن شهادتهم على الأحداث، ولكن هذه الشهادة لم تخرج عن الإطار المحكَم الذي قرره القرآن..!

فقد وصف الله حالهم: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنۡهُ ﴾.

وبالفعل لم تتطابق شهادتهم على الأحداث..

وحتى روايتهم لوقائع المحاكمة تُسجِل ملاحظة خطيرة: وهي أن الشخص الذي كان يحَاكم لم يستفضْ في الكلام..! على الرغم من أنها كانت الفرصة الوحيدة الباقية لإبلاغ دعوته وشرح قضيته لو كان هو المسيح ابن مريم..!

فبحسب ما ذَكرَت كتاباتهم كانت المحاكمة كلمات مقتضبة..

(إن كنت أنت المسيح فقل لنا.. ؟! فقال لهم: إن قلتُ لكم لن تصدقوني، وإن سألتُ لا تجيبوني، ولا تطلقوني..) (لوقا: ٢٢)..

(فسأله بيلاطس: أنت ملك اليهود؟! فأجاب وقال له: أنت تقول..!! وكان رؤساء الكهنة يشتكون عليه كثيرًا.. فسأله بيلاطس أيضًا قائلاً: أما تجيبُ بشيء..؟ انظرْ كم يشهدون عليك..؟!! .. فلم يجب يسوع أيضًا بشيء.. حتى تعجب بيلاطس..!!!) (مرقس: ١٦/٣-٧).

وهذه الملاحظة المسجلة في غاية الخطورة؛ لأن حياة المسيح منذ البعثة حتى الرفع كانت دعوة، وإقامة حجة، واستفاضة بلاغ.. وقد تميَّز المسيح بخوفه الشديد من الإبطاء في دعوته..!

قال رسول صلى الله عليه وسلم: «**إن الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات؛ أن يعمل بهن ويأمر بهن بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فكاد أن يبطئ، فقال له عيسى: إنك قد أُمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بهن بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تأمرهم وإما**

أن آمرهم، فقال: لا تفعل يا أخي، فإني أخشى إن سبقتني إليهم أن أُعذب أو يُخسف بي»[٦].

وروايات الكتب التي بين يدي النصارى تتفق مع تصوير الأحاديث للمسيح كداعية..

فلا تخرج حياه المسيح عن المواعظ والمعجزات.. إلى درجة أنه ظل يعِظُهم طوال النهار حتى جاع الناس واشتكوا إليه..

فكانت معجزة السمك والخبز..!

كيف للمسيح الذي لم يتوقف عن الدعوة سنوات طويلة.. ليلاً ونهارًا وفي كل مكان.. ومع جميع من يستطيع الوصول إليه..

دعوة زواج.. رحلة صيد.. حتى أنه كان يدخل على الناس في بيوتهم لدعوتهم..

كيف تكون حياته كذلك، ثم تأتي فرصته الأخيرة في الدعوة- **فلا يتكلم**.. إلا بألفاظ غير مفهومة..؟!

.. أنت تقول.. أنا أقول.. وفقط..!!

لقد كان الأمر الطبيعي والمنطقي أن يعتبر المسيح محاكمته فرصة لن تتكرر.. حيث اجتمع له رؤساء اليهود وجموعهم ليسمعوا الحقيقة كاملة.

الجانب الرابع: المشبه به

والمنهج السلفي في فهم قضية المسيح يقتضي الوقوف عند حدِّ

---

(٦) أخرجه أحمد (١٣٠/٤، ٢٠٢) ، والترمذي (٢٨٦٣) ، والحاكم (٨٦٣) جميعهم من حديث الحارث الأشعري.

النصوص الشرعية.. فلا ننشغل بمسألة لم يرد فيها نصٌّ شرعي، مثل مسألة شخص المشبه به، وبذلك تثبت الحدود العقدية للقضية؛ فلا نُدخل فيها ما ليس منها.

وتقرير هذه القاعدة لا يمنع مناقشة أي اجتهاد إسلامي يمكن الاستئناس به، لكنه يمنع من التفرق والاختلاف حول مسألة ليست داخلة ضمن التصور السلفي لقضية المسيح.

ومن المهم أيضًا التأكيد على أن زاوية الاهتمام بالمشبه به ليست شخصَه، ولكن تفسير موقفه في ضوء حكمة الفعل الإلهي.

والرواية السلفية الثابتة في هذا الموضوع وردت عن حبر الأمة عبد الله بن عباس.. قال:

(لما أراد الله أن يرفع عيسى عليه السلام إلى السماء خرج على أصحابه وهم في بيت؛ اثنا عشر رجلا، **ورأسه يقطر ماءً**، فقال: أيُّكم يُلقى شبهي عليه فيُقتل مكاني فيكون معي في درجتي..؟

فقام شابٌّ من أحدثهم سنًّا، فقال: أنا..! فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب فقال: أنا..! فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم الثالثة، فقال الشاب: أنا..! فقال عيسى عليه السلام: نعم أنت..! فَأُلقِيَ عليه شبه عيسى عليه السلام، ثم رُفِعَ عيسى من روزَنة كانت في البيت إلى السماء، وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا الشاب للشبه فقتلوه، ثم صلبوه)[٧].

قال ابن كثير: (وهذا إسنادٌ صحيح إلى ابن عباس، ورواه النسائي عن

---

(٧) أخرجه النسائي (٤٨٩/٦) ، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٣٩/٦) .

أبي كريب، عن أبي معاوية بنحوه، وكذا ذكره غير واحد من السلف).

وبذلك ينطبق مصطلح «حواري» أول ما ينطبق على هذا الشاب، وتذكِّرنا هذه الرواية بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ليله الخندق: «**من يأتيني بخبر القوم..**» فقام الزبير وقال: «أنا» ثلاث مرات فقال رسول الله: «**لكل نبيٍّ حواريٌّ.. وحواريِّي الزبير..**»[(٨)].

ولعل ظروف غزوة الخندق التي قال الله فيها: ﴿ **إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠** ﴾ [الأحزاب: ١٠] تشبه ظروف محاولة القبض على المسيح عليه السلام قبل وقوع التشبيه، فانتداب الرسول للزبير كان كانتداب المسيح للشَّاب.

واسم «حواريين» وإن كان لكل نبيٍّ إلا أن اختصاص الحواريين بعيسى ثابتٌ ومعروف ومشهور من النصوص.

الآثار المترتبة على التشبيه

تبين مما سبق أن التشبيه كان لوقوع الاستحقاق على اليهود بالغضب، ولم يكن لتحقيق النجاة للمسيح.. لأن النجاة قد تمت بالرفع قبل محاولة القبض على المسيح أصلاً..

وهذا الاستحقاق كان أول آثار التشبيه على اليهود..

لأن اليهود كانوا على يقين بأنه المسيح، وهذا اليقين كان أساسَ

---

(٨) أخرجه مسلم (٢٤١٥) ، والبخاري (٦٨٣٣) كلاهما من حديث جابر بن عبد الله.

استحقاقهم لذنب المحاولة وكأنها قتل فعلي.

أما أثر التشبيه على النصارى، ففيه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنۡهُۚ * مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ * وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴾ [النساء: ١٥٧]..

فمن أين أتى الشك إلى النصارى..؟!

لا بد أن تكون هناك شواهد صنعها الله ليحتج بها من يريد القول بأنه ليس المسيح؛ لأنه لولا هذه الشواهد ما وسع النصارى إلا القول بأن المصلوب هو المسيح دون اختلاف أو شك.

وعرض الحالة الفكرية للنصارى على المدى التاريخي بخصوص قضية الصلب هو الذي يفسر معنى الآية: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٥]، يعني: أن الله لا يضل قومًا إلا بعد أن يُبين لهم الأسباب والأشياء التي يحفظون بها أنفسهم من الضلال.

ليكون صلب المشبه به حدثًا واحدًا، له آثار متعددة..

التشبيه كان استدراجًا لأمة الغضب..

وكان فتنةً لأمة الضلال..

وهداية للحواريين الذين حفظهم الله من الغضب والضلال.

وهذه الشواهد لا بد أنها كانت كافية عند المهتدين، الذين قالوا: إن المصلوب ليس المسيح، أما الذين قالوا: إنه المسيح ﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ ﴾ ما لهم بهذا القول من علم ﴿ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾ لأن الشواهد الدالة على القول بأنه ليس هو المصلوب كانت هي الشواهد الصحيحة؛ مما جعل الذين يخالفونهم متبعين للظن، الذي لا يفيد العلم.

والقول الفصل في القضية على مستوى اليهود والنصارى والمسلمين

هو قول الله: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ [النساء: ١٥٧].

وكان يكفي أن يقول: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ ﴾.. ولكن لأجل الفصل كان قول الله تعالى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾.

ثالثًا: الحكمة من الرفع

وبعد أن نفى الله حدوث الصلب، وأكد وقوع التشبيه قال عز وجل: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٨].

فجاء ذكر الرفع مجملاً إثباتًا لتمام قدرة الله «العزيز» على إنجاء عيسى، وحكمته «الحكيم» من رفعه إلى السماء، بينما ذُكر الرفع مفصَّلاً في قول الله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٥٥ ﴾ [آل عمران: ٥٥].

حيث جاء على ثلاث مراحل:

الأولى: ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ﴾

والثانية: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ ﴾

والثالثة: ﴿ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٥٥ ﴾

والعلاقة المنهجية بين هذه المراحل هي ترتيب كل مرحلة على التي قبلها..

فتمام المرحلة الثانية؛ أي: وصول الذين اتبعوا المسيح «على الحق» إلى قمة علوِّهم فوق الذين كفروا بنزوله، وتأييده لهم- لا يكون إلا بتمام المرحلة الأولى؛ أي: برفعه وتطهيره من الذين كفروا..

وكذلك المرحلة الثالثة -وهي قيام القيامة ووقوف الخلق أمام الله للحساب- لن تكون إلا بتمام نزول المسيح وقتله الدجال.. لأنه من أشراط

الساعة..

والآن نناقش حكمة الرفع من خلال:

«المرحلة الأولى»: ﴿ مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ﴾

مُتَوَفِّيك: التوفية.. انقضاء الأجل في الدنيا.

وأصل كلمة الوفاة هو: التمام والكمال، قال تعالى: ﴿ **بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ** ﴾ [البقرة: ٤٠]، ﴿ **يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ** ﴾ [الإنسان: ٧]، ﴿ **وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ** ﴾ [النجم: ٣٧].

جاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس: (**وَفَى**: الواو والفاء والحرف المعتل: كلمة تدل على إكمال وإتمام. منه الوفاء: إتمام العهد وإكمال الشرط. ووفى أوفى فهو وفيٌّ، ويقولون: أوفيته الشيء إذا قضيته إياه وافيًا. وتوفيت الشيء واستوفيته، ومنه يقال للميت توفَّاه الله).

ومن معانيها: أوفى على المائة إذا زاد عليها، ووافيت العام: حججت، وتوفي فلان: توفاه الله تعالى وأدركته الوفاة.

فالمعنى: استكمال الموعد المحدد للمرء في الدنيا، وهذا قد يعني الموت بإخراج الروح، وقد يعني استيفاء المدة المؤقتة، وقبض الجسد بعد مدة معينة بغير إخراج الروح.

وهذا المعنى هو المقصود في هذه الآية، ويؤيده اقتران كلمة الوفاة بكلمة رافعك؛ أي: يستوفي جسده بعد إتمام المدة الأولى المقدرة قرينة

على عدم قبض الروح.

كما تؤيده النصوص الصحيحة الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بنزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان.

وقد جاءت الوفاة في القرآن على معانٍ منها:

١- **النوم:** قال الله تعالى: ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ** ﴾ [الأنعام: ٦٠] أي: يُنيمُكم.

٢- **الموت:** قال الله تعالى: ﴿ **قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ** ﴾ [السجدة: ١١].

وقد جمع الله المعنيين في قوله سبحانه: ﴿ **ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا** ﴾ [الزمر: ٤٢] فاستعمل الوفاة في الحالين: النوم والموت؛ لأن النوم أخو الموت؛ كما قال صلى الله عليه وسلم لما سُئل: أفي الجنة نوم؟ قال: «**لا.. النوم أخو الموت**»[٩]، والجنة لا موت فيها.

وقد جادل أقوامٌ بأن الوفاة المذكورة في حق عيسى هي الموت؛ لأنها لم تقترن بقرينة الليل أو النوم؛ وهذا باطل لأن أصل الكلمة لا يعني الموت كما تقدم، والأمر يتطلب القرينة إذا كان المعني الأصلي للفظ هو الموت.

كما أن تفسير الوفاة هنا بأحد معانيها -وهو الموت- يتصادم مع النصوص الثابتة المؤكدة لنزول عيسى عليه السلام.

فالوفاء ومشتقاته تعني -كما تقدم- الكمال والتمام، وهذا ينطبق على

---

(٩) أخرجه الطبراني (٩١٩) .

استيفاء المسيح عليه السلام كله بجسده وروحه من الأرض إلى السماء.

والخلاصة: أن المعنى هو استكمال مدة محددة هي الأولى له في الدنيا، أو الرفع حالة النوم؛ أي: الوفاة بالمعنى الثاني، أو التوفي بمعنى القبض من الأرض والأخذ الوافي أي: أخذه كله بجسده وروحُه فيه إلى السماء سليمًا مُعافى من أي ضرر، أو الثلاثة معًا.

وقد رُوي عن الحسن أنه قال في قوله تعالى: ﴿ **مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ** ﴾ يعني وفاة المنام، رفعه الله في منامه.

وقال الحسن: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لليهود: «**إن عيسى لم يمت، وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة**»(١٠).

قال ابن جرير: (توفيه هو رفعه)، وقال به جمهور المفسرين.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا قام من النوم: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا**»(١١).

قال الحسن: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لليهود: «**إِنَّ عِيسَى لَمْ يَمُتْ، وَإِنّهُ رَاجِعٌ إِلَيْكُمْ قَبْلَ يَوْمِ القِيامَةِ**».

وقال صلى الله عليه وسلم: «**ولَنْ يُخْزِي الله أُمَّةً أَنَا أَوَّلُهَا وَالمَسيحُ**

---

(١٠) أخرجه الطبراني (٥٧٤٧) .

(١١) أخرجه البخاري (٦٩٥٩، ٦٩٦٠) عن حذيفة رضي الله عنه، ومسلم (٢٧١١) عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

آخِرُهَا؟!»[١٢].

والحقيقة الإعجازية في هذه الآية هو أن معنى الرفع لغة هو النجاة..!

نقول:

«أرض نَجِيٌّ».. أي: مرتفعة لا يبلغها الماء.
«رُطَبٌ نَجِيٌّ».. أي: رُطَبٌ يؤكل من فوق النخلة بارتفاعها.
«جَبَلٌ نَجِيٌّ».. جبل مرتفع.
«سحاب نَجِيٌّ».. أي: أعلى السحاب وأرفعه.

فكانت النجاة بالرفع.. حدوثًا ولغةً.. وهذا من الإعجاز البلاغيِّ لكتاب الله في قضية عيسى..!

وكذلك جاء الرفع قرينًا للطُّهر.. كما في قول الله سبحانه: ﴿ **مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ** ﴾ [عبس: ١٤].

فكان رفع عيسى نجاةً له وطهرًا من بني إسرائيل.

وإدراك **الحكمة** من رفع عيسى يبدأ بتفسير حقيقة عيسى نفسه، فهو «جانب الخير» المقابل للدجال «جانب الشر»، وتحقيق «جانب الخير» في عيسى جاء باعتبار أن الشيطان لم يمسه، وباعتبار أنه لم يذنب قط[١٣].

وبذلك اقتضى الأمر أن يُرفع عيسى ابن مريم ليكون له وجود ممتد

---

(١٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٩٣٤٤) .
(١٣) يراجع: فصل (حكمة النزول-الأداة القدرية) .

في السماء يتقابل مع الوجود الممتد للدجال على الأرض، حتى لا ينقطع وجود عيسى.. باعتباره «جانب الخير» المقابل للدجال.. باعتباره «جانب الشر».

وبذلك يفهم أن وجود عيسى بلا انقطاع أمام الدجال.. حكمٌ قدريٌّ..

وأن قتل عيسى للدجال.. حكمٌ قدريٌّ..

وأن رفع عيسى حيًّا هو فعل الله المحقق لهذه الأحكام القدرية.

ولعلنا نلاحظ في الآية أن الرفع جاء قبل النجاة من الذين كفروا؛ لنفهم أن العلة الأساسية من الرفع هي بقاء عيسى حيًّا حتى ينزل في آخر الزمان، وليس مجرد أسلوب نجاة بالنسبة لعيسى، ومفردات الآية تؤكد المعنى الأساسي للرفع.

إن قدر الله بنجاة أنبيائه من أعدائهم ليس مجرد إنقاذ لحياتهم، ولكنه قدر يُظهر الله به حقائق يريد من الناس أن يفهموها ويؤمنوا بها.

والكيفية التي يحقق الله بها نجاة أنبيائه هي التي تتضمن هذه الحقائق..

مثال ذلك: يونس عليه السلام، حيث كان مضمون تجربة دعوته هو القدر والأسباب..

فقد أرسل الله يونس إلى قومه؛ ليكون سبب هداية لهم.. فلم يؤمنوا، فذهب مغاضبًا يائسًا من إيمانهم.

وركب الفلك؛ لينجو من بينهم.. فاضطرب الفلك، وأصبح سبب هلاك..

واقترع ركاب الفلك ليلقوا العبد الذي عساه أن يكون سبب هلاكهم..

واقترع يونس معهم.. فكان من المدحضين..

ويُلقى في البحر ليكون سبب هلاكه ونجاتهم..

فيلتقمه الحوت.. فيصبح سبب نجاته؛ إذ يسبح الله ويتوب إليه.. فيحتفظ به في بطنه ثلاثة أيام..

ثم يلفظه إلى البَر.. ويعود إلى قومه فيؤمنوا أجمعون، ويكون سببَ نجاتهم..

فكان لنجاة يونس وعودته إلى قومه مضمونٌ واحدٌ.. هو المشيئة الإلهية المطلقة، وفوقية القدر على الأسباب.. فتجانست النجاة مع الدعوة في المضمون.

وهذه هي حكمة النجاة.. أن يكون لها نفس مضمون الدعوة.

ومثال ذلك أيضًا: نجاة الرسول صلى الله عليه وسلم من محاولات قتله..

فقد كانت حياته صلى الله عليه وسلم مرتبطة بتمام الرسالة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧ ﴾ [المائدة: ٦٧].

لذا كانت نجاة الرسول صلى الله عليه وسلم في كل محاولات قتله قدرًا تامًّا، ومحققِةً في كل محاولة جانبًا من جوانب المضمون الأساسي

لرسالته[١٤]..

ففي الغار تبينت معيةُ الله للنبيِّ: «**ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما**»[١٥].

وفي أُحد وكذلك في حُنين.. حينما حاول المشركون قتل النبي صلى الله عليه وسلم، وتكاثروا على ذلك.. صاحَ رسول الله: «**أنا النبي لا كذب.. أنا ابن عبد المطلب**»[١٦].

وكذلك كانت نجاة عيسى.. فقد رُفع لينزل مرة أخرى، ويُتِم مضمون دعوته، باعتبار أن النزول قد تضمن الدلالات الأساسية لهذا المضمون[١٧].

«**المرحلة الثانية**»: ﴿ **ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ** ﴾

والذين اتبعوه هم الذين آمنوا به وعملوا بوصاياه، وأهمها الإيمان بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ويفسر ذلك قول الرسول: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة**» قال: «**فينزل عيسى ابن مريم** صلى الله عليه وسلم، **فيقول أميرهم: تعالَ صلِّ**

---

(١٤) يراجع: شبهة وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم مسمومًا.

(١٥) أخرجه البخاري (٣٦٥٣، ٣٩٢٢، ٤٦٦٣) ، ومسلم (٦٣١٩) كلاهما عن أبي بكر رضي الله عنه.

(١٦) أخرجه البخاري (٢٨٦٤، ٢٨٧٤، ٢٩٣٠، ٣٠٤٢، ٤٣١٥، ٤٣١٦) ، ومسلم (٤٧١٥، ٤٧١٦، ٤٧١٧) كلاهما عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

(١٧) يراجع: فصل (عيسى والصراط) بالباب الخامس (الهيمنة السلفية) .

لنا. فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء؛ تَكرِمة الله هذه الأمة»[١٨].

ولذلك يقول ابن كثير في تفسير الآية: (فلما بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم، فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق، فكانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض، إذ قد صدقوا الرسول النبي الأمي العربي، خاتم الرسل وسيد ولد آدم على الإطلاق، الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق، فكانوا أولى بكل نبيٍّ من أمته، الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته مع ما قد حرفوا وبدلوا.

ثم لو لم يكن شيء من ذلك لكان قد نسخ الله شريعة جميع الرسل بما بعث الله به محمدًا صلى الله عليه وسلم من الدين الحق، الذي لا يُغير ولا يُبدل إلى قيام الساعة، ولا يزال قائمًا منصورًا ظاهرًا على كل دين.

فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها، واحتازوا جميع الممالك، ودانت لهم جميع الدول، وكسروا كسرى، وقصروا قيصر وسلبوهما كنوزهما، وأنفقت في سبيل الله كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم عز وجل في قوله: ﴿ **وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ** ﴾ [النور: ٥٥].

فلهذا لما كانوا هم المؤمنين بالمسيح -حقًّا- سلبوا النصارى بلاد الشام وألجئوهم إلى الروم فلجئوا إلى مدينتهم القسطنطينية، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة).

---

(١٨) أخرجه مسلم (٤١٢) عن جابر بن عبد الله.

وبعد وقت ليس ببعيد من عهد ابن كثير.. فتح العثمانيون القسطنطينية ودقوا أبواب فيينا ووصلوا إلى قلب أوروبا..

«المرحلة الثالثة»: ﴿ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾

وهي المرحلة الأخيرة، ولها أهمية بالغة في قضية المسيح عيسى ابن مريم، ذلك أن النصارى يدعون أن عيسى صعد إلى السماء لتكون له الدينونة أو الحكم بين الناس؛ ولذلك تُثبت الآية بعد رفع عيسى أن الحكم لله.. لا لأحد غيره، كما أن قضية عيسى ابن مريم أخطر القضايا التي اختلف حولها البشر، مما يقتضي حسمها بحكم الله فيها.

وبذلك تقوم الحجة الإلهية على الخلق في كل مراحل هذه القضية..

ابتداءً بإقرار عيسى بعبوديته عند ولادته..﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴾ [مريم: ٣٠].

ومرورًا بجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، كما قال الله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الصف: ١٤]..

وانتهاءً بمساءلته يوم القيامة: ﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ * مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

رابعا: الحكمة من النزول

إن نزول عيسى ابن مريم ضرورة تتعلق بقضيته؛ لأن بدعة ادِّعاء الولد لله تتطلب مواجهة كونية، تقتضي أن يكون عيسى نفسه هو أداة النفي لهذا الادعاء..

وكما تكلم عيسى في المهد ليقول بنفسه: ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٣٠]..

كان لا بد من نزوله لينفي بنفسه أيضًا آثار هذا الادعاء..

كان لا بد أن ينزل ويكسِر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية..

وهذا الأسلوب المُحدد في نفي ادِّعاء الولد لله يرجع إلى طبيعة المرحلة التي سينزل فيها عيسى ابن مريم في آخر الزمان، فهي مرحلة تصحيح واقعي وليست مرحلة دعوة كلامية..

ابتداءًا من كسر الصليب.. وانتهاءً بمُساءلته يوم القيامة على رءوس الأشهاد.

وكسر الصليب راجع إلى الطبيعة الكونية لآثار بدعة الادعاء..

حيث قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مريم: ٩٠][١٩].

---

(١٩) تعلمنا من القرآن والسنة طبيعة القضايا التي لا تعالج إلا بالفعل، مثل عادة التبني التي أبطلها القرآن بتزويج النبي فعلاً من زينب، حيث لم يكفِ نفي التبني بالكلام؛ لأنها قضية واقعية فلابد أن تتم معالجتها عمليًّا، ولذلك ربط الله سبحانه وتعالى بين النهي عن التبني بالطبيعة الإنسانية، فقال سبحانه: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾

ولذلك كان لا بد من إنهاء بدعة ادِّعاء الولد على رءوس الأشهاد وأمام جميع الخلائق.

وتتميز المرحلة الثانية من حياة المسيح بامتلائها بالدلالات المثبتة للحكمة من خلق عيسى أصلاً، ثم نزوله بعد رفعه.

وأحاديث النزول هي النصوص الجامعة لهذه الدلالات..

وأساس هذه الدلالات هو إثبات عبودية عيسى عليه السلام، وأهم هذه الدلائل هي وصف النبي صلى الله عليه وسلم لعيسى حال النزول عند استفحال فتنة الدجال: «**فبينما هم كذلك إذ بعث الله عيسى ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء -شرقي دمشق- بين مهرودتين، واضعًا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه ينحدر منه جمان كاللؤلؤ**»[٢٠].

مكان النزول

وكما كانت الدقة في إثبات الحكمة من النزول والتعبير عن النزول كانت كذلك في كيفية النزول.. وقد تجلت هذه الدقة في تحديد مكان النزول: «عند المنارة البيضاء شرقي دمشق»، وهذا المكان موضعه اليوم في المسجد الأموي بدمشق.

يقول الإمام ابن تيمية: (كان جامع دمشق وجامع حران وغيرهما

[الأحزاب: ٤]، فالطبيعة الإنسانية: أن لكل إنسان قلب واحد، فلا بد كذلك ألا ينتسب الابن لغير أبيه: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

(٢٠) سبق تخريجه.

موضع بعض هياكلهم -أي الصابئة- هذا هيكل المشترى، وهذا هيكل الزهرة)[٢١].

وهذا يثبت رمزية المكان، التي تتفق في معناها مع معنى النزول، حيث لا يبقى للصابئة ولا لليهود ولا للنصارى - الذين تناوبوا على هذا المكان - أي أثر، بعد أن ينزل عيسى ابن مريم، ويكون الدين ملة واحدة.

وقت النزول

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ينزل عيسى ابن مريم عند صلاة الفجر**» وبذلك يثبت التحديد الزماني للنزول بأنه وقت صلاة الفجر، هذا الوقت الذي تجتمع فيه ملائكة النهار والليل على الأرض، ولذلك قال الله في قرآن الفجر: ﴿ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٨].

فكان نزول عيسى مشهودًا.. تشهده ملائكة الليل والنهار، وليصبح أول أعماله بعد النزول صلاة الصبح خلف المهدي[٢٢].

وصلاة الصبح هي أقوى موانع الفتن؛ ولذلك قال رسول الله صلى

---

(٢١) ذكر الإمام ابن عساكر في تاريخ دمشق أن هذا المكان كان معبدًا لوثن الصابئة الأكبر: جوبيتر، ثم ملكه اليهود، ثم أقام فيه النصارى كنيسة، ثم فتحه خالد بن الوليد رضي الله عنه، وبنى عليه الوليد بن عبد الملك المسجد الأموي.

ويقول عبد المسيح بن إسحاق الكندي: (ومن آثارهم -أي الصابئة- القبة التي فوق محراب، عند المقصورة من جامع دمشق، وكان مصلاهم، كان اليونانيون والروم على دينهم، ثم صارت في أيدي اليهود فعملوها كنيستهم، ثم تغلب عليها النصارى فصيروها بيعة، إلى أن جاء الإسلام وأهله فاتخذوها مسجدًا) .

(٢٢) لمراجعة المزيد من دلائل عبودية عيسى عليه السلام يراجع: (الباب الخامس-فصل اختصاصات عيسى عليه السلام) .

الله عليه وسلم في حديث نزول الفتن: عن أم سلمة قالت: استيقظ النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فقال: «**سبحان الله! ماذا أُنزل الليلة من الفتن؟ وماذا فُتح من الخزائن؟ أيقظوا صواحبات الحجر، فربَّ كاسية في الدنيا عارية في الآخرة**»[٢٣].

وقال صلى الله عليه وسلم: «**إني لأرى الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر**»[٢٤]؛ وذلك لأن صلاة الليل حرز من الفتن، وصلاة الصبح تعدل قيام الليل، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**من صلى العشاء في جماعة كأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة كأنما قام الليل كله**»[٢٥] هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى.. فإن صلاة الصبح تجعل صاحبها في ذمة الله، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**من صلى الصبح في جماعة كان في ذمة الله حتى يمسي..**»[٢٦].

ومن ناحية ثالثة.. فإن هناك تقابلاً بين صلاة الصبح والدجال، حيث إن صلاة الصبح خير من الدنيا وما فيها، وفتنة الدجال هي شر الدنيا وما

---

(٢٣) أخرجه البخاري (١١٥، ١١٢٦، ٣٥٩٩، ٥٨٤٤، ٦٢١٨، ٧٠٦٩) عن أم سلمة رضي الله عنها.

(٢٤) أخرجه البخاري (١٨٧٨، ٢٤٦٧) ، ومسلم (٧٤٢٧) كلاهما من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

(٢٥) أخرجه مسلم (١٥٢٣) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢٦) أخرجه مسلم (١٥٢٥) عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه.

فيها، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**يتبعه اليهود والمال والنساء والشياطين**»(٢٧).

هيئة النزول

من أهم حقائق الحكمة في نزول عيسى عليه الصلاة والسلام.. إثبات بشريته وعبوديته؛ لذلك كان لنزوله صورة محددة تضمنتها الأحاديث التي ورد فيه ذكر النزول، حيث ظهرت في هذه الصورة عدة عناصر:

«**بين مهرودتين- أو مُمَصَّرتين**»**:** أي مرتديًا ثوبين مصبوغين - أوْ حلتين تضربان إلى الصفرة، مما يشير إلى الدقة الكبيرة في وصف الثوب الذي سينزل فيه عيسى (مرتديًا ثوبين)، ووصف لونهما بنفس الدقة «**تضربان إلى الصفرة**»(٢٨).

وهناك ملاحظة عامة في أحاديث آخر الزمان، وهي الوصف التفصيلي الدقيق، الذي يحقق اليقين في النفس، **ومن أبرز الأمثلة عليه:**

---

(٢٧) أخرجه أحمد (٢١٦/٤) والطبراني في (الكبير) (٥١/٩/ح٨٣٩٢) وذكره الهيثمي في (المجمع) (٣٤٢/٧) بلفظ: «فأكثر تبعه من اليهود والنساء») قال: فيه علي بن زيد وفيه ضعف، وقد وثق، بقية رجاله رجال الصحيح.

(٢٨) وقد عقب الراوي على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: (إنا أول مرة نسمع مهرودتين) مما يشير إلى الفصاحة التي تكلم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قضية عيسى ابن مريم؛ ليجتمع إلى حق الوحي.. فصاحة البيان، وبهذا تكون القضية في حرز من التحريف، والحقيقة: أن استعمال الألفاظ الفصيحة غير المتواترة على ألسنة الناس تكاد تكون ظاهرة عامة في أحاديث آخر الزمان؛ لتعْلَق الألفاظ في الذهن، وتُحقق اليقين، وتمنع إمكانية إبدال لفظ مكان لفظ، حفاظًا على الأبعاد الكاملة لمعنى اللفظ.

* قول رسول الله صلى الله عليه وسلم **بعد ذكر الملحمة**: «**فبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأسٍ هو أكبر من ذلك، فجاءهم الصريخ، فقال: إن الدجال قد خرج في ذراريهم فيرفضون ما بأيديهم ويقبلون فيبعثون عشرة فوارس طليعة.. قال رسول الله** صلى الله عليه وسلم**: إني لأعرف أسماءهم وأسماء آباءهم وألوان خيولهم؛ هم خير فوارس على ظهر الأرض أو خير فوارس يومئذ**»[٢٩].

* وفي **حديث النفخ في الصور** يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم حال أول من سيسمع: «**ثم ينفخ في الصور؛ فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتًا ورفع ليتًا، قال: فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله فيُصعق ويُصعق الناس**»[٣٠].

* وفي **حديث هدم الكعبة** يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**كأني به أسود**[٣١] **أفجح، يقلعها حجرًا حجرًا**»[٣٢].

* وفي **آخر الحشر** يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**تتركون المدينة على خير ما كانت، لا تغشاها إلا العواف ـيريد عوافي السباع والطيرـ وآخر من يُحشر راعيان من مُزينة؛ يريدان المدينة، ينعقان بغنمهما، فيجدانها وحشًا، حتى إذا بلغا ثنية الوداع خرَّا على**

---

(٢٩) أخرجه مسلم (٧٤٦٣) عن ابن مسعود.

(٣٠) أخرجه مسلم (٧٥٦٧) عن عبد الله بن عمرو.

(٣١) يقصد: ذي السويقتين من الحبشة.

(٣٢) أخرجه البخاري (١٥٩٥) عن ابن عباس.

وجوههما»[٣٣].

* كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم ينزل عند المنارة البيضاء **«واضعًا كفيه على أجنحة ملكين»** وقد كان نزول عيسى ممكنًا بغير ملائكة، ولكن حمل الملائكة لعيسى إثبات لافتقار عيسى إلى الحمل، ولذلك كان الحمل من خصائص الخلق، فأصبح كل من يجري عليه الحمل مفتقرًا إلى غيره في قيامه وليس قائمًا بنفسه، وهو أيضًا الحكمة من جعل الملائكة حملة للعرش، إثباتًا لحقيقة أن العرش مخلوق.

وقد ثبت هذا المعنى في حق عيسى عليه السلام منذ خلقه في بطن أمه، حيث قال الله في ذلك: ﴿ **فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا** ﴾ [مريم: ٢٢]، ولفظ ﴿ **حَمَلَتْهُ** ﴾ يغلِّب عليه جانب عيسى بدلاً من لفظ (حَمَلَتْ بِهِ) الذي يغلِّب عليه جانب مريم، ويأتي في سياق هذا المعنى قول الله عز وجل: ﴿ **فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ** ﴾ [مريم: ٢٧] وكان يكفي أن يقول الله: (فأتت به قومها) ليعبر عن المعنى المقصود..!

* ويأتي في سياق هذا المعنى أيضًا.. وصفُ النبي صلى الله عليه وسلم لعيسى وهو يطوف بالبيت في آخر الزمان بقوله: **«رأيت عيسى وهو يطوف بالبيت متكئا على عاتق رجل»**[٣٤] وفي نفس النص يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المسيح الدجال وهو يطوف بالبيت متكئًا بين رجلين، وفي ذلك إثباتٌ لافتقار عيسى والدجال، نفيًا للألوهية التي ادَّعاها النصارى لعيسى، ونفيًا للألوهية التي ادعاها الدجال لنفسه.

ودلالة أن يكونا: **«ملكين»**.. هي التعبير عن الإحاطة الإلهية بالخلق..

---

(٣٣) أخرجه البخاري (١٨٧٤) من حديث أبي هريرة.

(٣٤) أخرجه البخاري (٥٩٠٢، ٦٩٩٩) ومسلم (٤٤٣، ١٦٧٢) كلاهما عن ابن عمر.

ولها شواهد كثيرة..

- **ففي الدنيا:** الرقيب والعتيد، كما في قول الله عز وجل: ﴿ **مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ [ق: ١٨].

- **وعند الموت:** عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: (إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدانها)[٣٥].

- **وفي القبر:** «**فيأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟**»[٣٦].

- **ويوم القيامة قبل الحساب:** ﴿ **وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ** ﴾ [ق: ٢١].

- **ويوم القيامة بعد الحساب:** ﴿ **أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ** ﴾ [ق: ٢٤].

«**يقطر ماءً - إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ**»:
ودلالة الماء على عبودية المسيح له معناه، حيث كان العرش حدَّ الخلق في الابتداء؛ لأنه أول ما خلق الله، وكان الماء تحت العرش، كما قال الله سبحانه: ﴿ **وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ** ﴾[هود: ٧][٣٧]..

وعندما أبطل الله بدعة ادِّعاء الولد -في سياق سورة الأنبياء- قال سبحانه: ﴿ **وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا**

(**٣٥**)) أخرجه مسلم (٧٤٠٠) عن أبي هريرة مرفوعًا.

(**٣٦**) أخرجه مسلم (٧٣٩٨) عن البراء بن عازب.

(**٣٧**) على خلافٍ فيمن كان قبل الآخر.. «القلم» أم «العرش» والخلاف غير مؤثر في الاستدلال على المعنى المقصود.

لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ * وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ * أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٣٠]..

دلالةً على خضوع كل المخلوقَات لقاعدة السببية، والتي تنشأ بمقتضاها من الماء، ولذلك ختم الله السياق بقوله: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴾.

فأصبح الماء سببًا للخلق عمومًا، وللبشر خصوصًا، حيث اختصهم الله بالذكر: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ﴾ [الفرقان: ٥٤].

وذِكر هذه الآية في سورة الفرقان يؤكد المعنى المطلوب فهمه؛ لأن اسم السورة «الفرقان» يتضمن -أول ما يتضمن- الفرقان بين الخالق والمخلوق، أو بين الله والعباد.

وبذلك أصبح للماء دلالة كونية عامة على العبودية لله.. باعتباره حدًّا مكانيًا للخلق، وباعتباره سببًا كونيًّا للخلق.

ومن هنا كان الوضوء مادة تعبدية.. حيث أثبت الله للماء أصل الطهر الذي يكون به التعبد، بعدمًا أثبت الزمان «الليل والنهار» الذي تتقلب فيه أحوال العباد، فقال الله في سورة الفرقان: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا * وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا * لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا

خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴾ [الفرقان: ٤٧-٤٩].

نزول عيسى ضرورة قدرية:

لا نستطيع أن نفهم الحكمة من نزول عيسى عليه السلام إلا من خلال قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾ [الزخرف: ٦١].

يقول ابن فارس في مقاييس اللغة: (**علم:** العين واللام والميم أصلٌ صحيح واحد، يدلُّ على **أثَرٍ بالشيء** يتميَّزُ به عن غيره، من ذلك العَلامة، وهي معروفة، يقال: عَلَّمت على الشيء علامة).

وتفسير هذه الآية جاءت فيه أقوال متعددة، لكنها جميعًا تتجه نحو تصور منهجي محدد لعيسى ابن مريم، كأمارة على وقوع الساعة، وكعلامة من علاماتها(٣٨).

أما القول بأنه أمارة ودليل على وقوع الساعة فلأن معجزته كانت تحقيقًا ظاهرًا لكل الأبعاد القدرية التي تقوم بها الساعة، وهذه الأبعاد هي الإرادة والمشيئة والقدرة الإلهية المطلقة.

والحقيقة: إن للعلاقة بين عيسى والساعة من خلال هذه الأبعاد أصلاً قرآنيًا، حيث لم يُذكر في القرآن تعبير: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ إلا في ثمانية مواضع.. أربعة متعلقة بعيسى ابن مريم، وأربعة متعلقة بقيام الساعة..!

ففي عيسى ابن مريم جاء قوله سبحانه: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ

---

(٣٨) هناك قراءة متواترة بتحريك العين واللام (لَعَلَم) ، وهي تؤكد نفس المعنى.

بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ * بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٦، ١١٧].

﴿ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٤٧].

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [مريم: ٣٥].

وفي الساعة -البعث بعد الموت- جاء قوله سبحانه:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ * إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠].

﴿ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [غافر: ٦٨].

هذا من حيث الأبعاد القدرية..

أما من حيث العلامات ذاتها؛ فإن عيسى ابن مريم لن يكن مجرد علامة من العلامات، بل سيكون علامة العلامات..

فكونه يصلي خلف المهدي فهذه علامة على المهدي..

وكونه يقتل الدجال فهذه علامة على الدجال..

وكونه يأوي بعباد الله -من يأجوج ومأجوج- إلى جبل الطور فهو علامة على يأجوج ومأجوج..

وباجتماع علامات الساعة في عيسى تحقق معنى «**علم الساعة**»، حيث يقول ابن فارس: (كلُّ جنسٍ من الخَلْق فهو في نفسه مَعْلَم وعَلَم. وقال قوم: العالَم سمِّي لاجتماعه).

وباجتماع علامات الساعة في عيسى غدا علمًا ومعلمًا للساعة، ينتفي به أي شك فيها، ولذلك قال عز وجل: ﴿ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا ﴾.

ومن خلال الأبعاد القدرية لعلامات الساعة والعلامات ذاتها يثبت التجانس التام بين عيسى والساعة.. ليكون عيسى عليه السلام هو **أنسب** أداة لتحقيق علامات الساعة باعتبار هذا التجانس.

وإثبات التناسب بين عيسى وعلامات الساعة يجب أن يبدأ بتفسير معنى التناسب القدري.

التناسب بين القدر .. والأداة المحقِّقة

والشرط الأساسي للأداة القدرية هو التناسب مع الغاية المحددة لتلك الأداة(٣٩)، وأن تكون أداة التحقيق من جنس القدر المحقق، ويدخل في هذا المعنى كل الأفعال التي ستكون من عيسى في آخر الزمان، وأهمها: قتل الدجال، والإيواء بعباد الله إلى جبل الطور من يأجوج ومأجوج.

ومناسبة عيسى لقتل الدجال تأتي من علاقة التقابل بين عيسى والدجال، فالشر المجتمع في الدجال.. لا يناسبه ليمحوه إلا الخير المجتمع في عيسى ابن مريم.

وتحقيق «جانب الخير» في عيسى جاء باعتبار أن الشيطان لم يمسه، وباعتبار أنه لم يذنب قط.

وباجتماع هذه الخصائص في عيسى يكون الله قد حقق فيه غلبة الخير في الواقع البشري بصفة عامة، إذ أصبح قسم من أقسام النوع الإنساني الأربعة؛ لم يمسه الشيطان ولم يذكر له ذنب.

وبذلك ينطبق على علاقة المسيح عيسى ابن مريم والمسيح الدجال

---

(٣٩) ولتفسير معنى التناسب نذكر مثل التقابل بين الماء والشيطان، فإذا كانت النصوص تثبت الحرز في الماء باعتبار التقابل الذي بينه وبين النار- فإن هناك نصًا يثبت هذا التقابل، باعتبار أن إبليس قد خُلق من نوع معين من النار؛ ليتحقق التقابل كاملاً ودقيقًا، فقد ثبت بالقرآن أن إبليس قد خلق ﴿ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الحجر: ٢٧] ومن ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ [الرحمن: ١٥] ونار السموم والمارج من النار هما أعلى جزء من النار إذا التهبت، فكان نص الحرز هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد)) ، حيث إن البرد هو الثلج الخفيف الذي يسقط من أعلى، فيقابل البَرَد هنا اللهب المرتفع في النار التي خُلق منها إبليس.
وبذلك يتحقق التقابل التام مع الشيطان: برودة الثلج المقابلة لحرارة الماء والنار، والبرد وهو المرتفع من الثلج المقابل للمارج وهو المرتفع في النار.

كل قواعد العلاقة بين الخير والشر، وأهمها حقيقة علاقة الصفة القدرية بمقتضاها في الواقع..

يفسر ابن القيم هذه الحقيقة فيقول في تفسير قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

(فكما غلبت الرحمة غلب جنودها)..

ولهذا أورد البخاري في باب: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ قول النبي: «**لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش أن رحمتي سبقت غضبي**»[٤٠].

ولما كان عيسى هو «جانب الخير» المقابل للدجال «جانب الشر» فإن القاعدة تنطبق على العلاقة بين عيسى والدجال وفقًا للعلاقة بين الخير والشر.

ويقول ابن القيم في تفسير قول النبي: «**لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك**»[٤١]:

(الشرُّ كله عدم، وسببه الجهل وهو عدم العلم، أو الظلم وهو عدم العدل، وما يترتب على ذلك من الآلام، فهو من عدم استعداد المحل

---

(٤٠) أخرجه البخاري (٧٤٢٢، ٧٤٥٣، ٧٥٥٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤١) أخرجه مسلم (١٨٤٨) عن علي رضي الله عنه.

وقبوله لأسباب الخيرات واللذات)[٤٢].

فلما كان الشر عدمًا أمام الخير فإن الدجال ينعدم أمام عيسى، ولذلك تصف الأحاديث قتل عيسى للدجال بأنه:

«**يذُوب كما يذُوب الرصاص**» أو «**يذوب كما يذوب الملح**» أي ينعدم الدجال «الشر» أمام عيسى «الخير».

كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فإذا رآه عدوُّ الله ذابَ كما يذُوب الملحُ في الماء**»[٤٣].

وأصل التجانس بين الدجال والملح هو افتقاد الشر لوجودٍ أصلي، ومن هنا كان الذوبان مثالاً للشر وعقوبة عليه، باعتبار أن الجزاء من جنس العمل، ولذلك كان الذوبان والشر المطلق جنسًا واحدًا وهو «العدم».

وهناك ملاحظة خطيرة خاصة بذوبان الدجال كالملح، وهي أن الذوبان عقوبة من أراد بالمدينة سوءًا أو كيدًا، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا يكيد أهلَ المدينة أحدٌ إلا انماع كما ينماع الملح في الماء**»[٤٤] وقال صلى الله عليه وسلم: «**من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء**»[٤٥].

---

(٤٢) شفاء العليل.

(٤٣) أخرجه مسلم (٧٤٦٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤٤) أخرجه البخاري (١٨٧٧) عن سعد بن أبي وقاص.

(٤٥) أخرجه مسلم (٣٣٨٥، ٣٤٢٧) عن سعد بن أبي وقاص، و(٣٤٢٤، ٣٤٢٥) عن أبي هريرة، و(٣٤٢٩) عنهما معًا.

وواضح من الأحاديث أن صورة الإذابة «**كما يذوب الملح في الماء**» هي أشد صور الجزاء؛ ولذلك ضُربت مثلاً لمن أراد سوءًا أو كيدًا بالمدينة، وهي الصورة التي سيُقتل بها الدجال، وبذلك يضاف إلى طبيعة الدجال المتجانسة مع الملح سببًا آخر للذوبان.. وهو عداؤه للمدينة..!

وقد عبَّر القرآن عن هذا المآل في مثل المشرك في قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ **حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ** ﴾ [الحج: ٣١].

وباعتبار أن العلاقة بين الخير والشر في الأصل هي العلاقة بين الحق والباطل..

والعلاقة بين الحق والباطل هي غلبة الحق وزهوق الباطل..

كما قال سبحانه: ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ** ﴾ [الأنبياء: ١٨]؛ لذا سينزل عيسى ابن مريم طرفًا للحق الذي يقذف الله به الباطل، فيثبت معنى الغلبة بلا صراع عندما يفر الدجال منه حين يراه، وكذلك الكافرون من أهل الشر لا يقفون لعيسى ولا يستطيعون، بل يكون الأمر كما قال رسول الله: «**لا يحل لكافر أن يجد ريح نَفَسِه -أي نَفَسَ عيسى- إلا مات، ونَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طرفه**»[٤٦].

---

(٤٦) أخرجه مسلم (٧٥٥٩) عن النواس بن سمعان.

وباعتبار أن الدجال فتنة الشر -الذي اجتمعت فيه كل أسبابه- فإن هذه الأسباب تُهزم معه؛ ولذلك ربط رسول الله صلى الله عليه وسلم بين قتل الدجال وهزيمة اليهود.. «**فيدركه -أي: يدرك عيسى الدجال- عند باب اللُّدّ الشرقي فيقتله، فيهزم الله اليهود، فلا يبقى شيء مما خلق الله عز وجل يتواقى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء؛ لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة.. إلا الغرقدة فإنها من شجرهم- لا تنطق إلا قال: يا عبد الله المسلم!.. هذا يهودي؛ فتعالَ اقتله**»[٤٧].

وكما كان التناسب بين عيسي وقتل الدجال.. كان كذلك في النجاة بعباد الله من يأجوج ومأجوج.

فقد رُفع عيسى عليه السلام ليكون له وجود متصل في السماء، يتقابل مع الوجود المتصل للدجال على الأرض، والوجود المتصل ليأجوج ومأجوج تحت الأرض..

فلا ينقطع وجود «جانب الخير» المتمثل في عيسى في مقابل «جانب الشر» المتمثل في الدجال ويأجوج ومأجوج.

شبهة .. وردها

قال السفهاء من الناس: إن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان يتعارض مع حقيقة ختم النبوة بالرسول عليه الصلاة والسلام..

لذا لزم تحديد الأسس التي تفسر الصفة التي سينزل بها عيسى ابن مريم في أمَّة محمد صلى الله عليه وسلم:

---

(٤٧) أخرجه ابن ماجه وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٧٥) .

أولاً: النبوة وحيٌ.. والوحي أحكام.. وعيسى لن ينزل بأحكام؛ لأن كل أفعاله ستكون أحكامًا ثابتة مسبقًا في شريعة الإسلام، فإذا كانت أهم أفعاله بعد النزول كسر الصليب، وقتل الخنزير، ووضع الجزية- فإن أحكام هذه الأفعال قد أقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فأمَّا **كسر الصليب** فقد روت أُمُّنا عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لم يكن يترك في بيته شيئًا فيه تصاليب إلا نقضه)[٤٨].

وعندما دخل عدي بن حاتم على رسول الله صلى الله عليه وسلم -قبل أن يسلم- وفي عُنقه صليب من ذهب قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يا عدي.. اطرح عنك هذا الوثن**»[٤٩].

وأما **قتل الخنزير** فدليل على الحرمة؛ لأن ما أمر الشرع بقتله لا يؤكل، وإن كان مما يؤكل أصلاً فإن قتله دون ذبح يمنع أكله، ومن هنا كان قتل الخنزير دلالة على حرمته.

وكذلك كانت ضرورة **وضع الجزية**؛ لأن الجزية إقرارٌ باختلاف الأمم وتعددها، ووضعها إنهاءً لتعدد الأمم والملل، فيصبح الناس ملةً واحدةً كما كانوا في بدء الخلق؛ ولذلك جاء «كتاب بدء الخلق» في تصنيف البخاري بعد «كتاب الجزية» لأجل هذا المعنى المشار إليه، فقد بدأ الخلق أمة واحدة كما قال الله سبحانه: ﴿ **كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ**

---

(٤٨) أخرجه البخاري (٥٩٥٢) عن عائشة.

(٤٩) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥) .

ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣] فمعنى أن يكون الناس أمة واحدة.. هو ألا تكون هناك جزية..!

وكذلك قيام الساعة هو عودة الخلق كما بدأ؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

كما أن حكم الجزية مرتبط بالجهاد، وبمجرد قتل الدجال لن يكون جهاد، ودليل ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**والجهاد ماضٍ منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال**»[٥٠].

نقل الإمام ابن حجر عن الإمام النووي قوله: (الصواب أن عيسى لا يقبل إلا الإسلام، قلت «أي ابن حجر»: ويؤيده عند أحمد من وجه آخر عن أبي هريرة: «**وتكون الدعوة واحدة**».

ومعنى وضع عيسى الجزية مع أنها مشروعة في هذه الشريعة- أن مشروعيتها مقيدة بنزول عيسى لما دل عليه هذا الخبر، وليس عيسى بناسخٍ لحكم الجزية، بل نبينا صلى الله عليه وسلم هو المبين للنسخ، المثبت له في شريعة الإسلام ابتداءً).

ثم يقول: (إن مشروعية قبول الجزية من اليهود والنصارى لما في أيديهم من شبهة الكتاب وتعلقهم بشرعٍ قديمٍ بزعمهم، فإذا نزل عيسى

---

(٥٠) أخرجه أبو داود (٢٥٣٢) .

عليه السلام زالت الشبهة بحصول معاينته، فيصيرون كعبدة الأوثان في انقطاع حجتهم وانكشاف أمرهم، فناسب أن يُعاملوا معاملتهم في عدم قبول الجزية منهم).

ثانيا: الحكمة الأساسية للمعجزات بالنسبة للأنبياء .. هي إثبات للنبوة أو تعريف بالنبي، ولكن المعجزات التي ستكون على يد عيسى ابن مريم لن تكون كذلك؛ لأن الناس جميعهم سيعرفون عيسى بمجرد نزوله الأرض بين المنارتين في مسجد دمشق، بدليل أن المهدي سيقدِّمه للصلاة، فيرد عليه قائلاً: «**إمامُكم منكم؛ تَكرِمة الله هذه الأمة**»[٥١].

كما أن صلاة عيسى وراء المهدي دليلٌ على خضوعه لأحكام الشريعة الإسلامية المنزلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنها: أن صلاته ستكون نفس صلاتِنا، وأن إمامة المهدي له تُثبت سُلطان المهدي على الأمة، وأن حكم عيسى سيكون حكم الضيف الذي يُصلي وراء صاحب البيت.

ثالثًا: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بيَّن الصفة التي سينزل بها عيسى فقال: «**يُوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية**»[٥٢] فهو سينزل في الأمة بصفته **حكمًا عدلاً** وليس باعتبارٍ آخر.

---

(٥١) سبق تخريجه.

(٥٢) أخرجه البخاري (٢٢٢٢، ٢٤٧٦، ٣٤٤٨) ومسلم (٤٠٦) كلاهما من حديث أبي هريرة.

رابعا: أن كل ما سيكون من أمر عيسى ابن مريم سيكون معجزةً للرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذي أخبر به قبل أن يكون.

خامسًا: أن أثر نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان لن يكون محدودًا برسالته الأولى؛ لأن رسالته الأولى كانت في بني إسرائيل، أما بعد نزوله فسيكون أثره خارجَ هذه الحدود.

خامسا: الحكمة من المساءلة يوم القيامة

والحكمة من هذا الموقف ترجع إلى قاعدة عامة، وهي الإظهار الكامل للحق يوم القيامة؛ لأنه يوم كمال الإظهار لأسماء الله وصفاته..

ولذلك يقول ابن القيم: (جعل الله سبحانه وتعالى الدُّور ثلاثة: دارٌ أخلصها للنعيم واللذة والبهجة والسرور، ودارٌ أخلصها للألم والنَّصب وأنواع البلاء والشرور، ودارٌ خُلط خيرها بشرها، ومُزج نعيمها بشقائها، ومزج لذتها بألمِها، يلتقيان ويطالبان، وجعل عمارة تينك الدارين من هذه الدار، وأجرى أحكامه على خلقه في الدور الثلاثة بمقتضى ربوبيته وإلهيته، وعزته وحكمته، وعدله ورحمته، فلو أسكنهم كلهم دار البقاء -من حين أوجدهم- لتعطلت أحكام هذه الصفات ولم يترتب عليها آثارُها).

ويقول في موضع ثانٍ: (إن يوم الميعاد الأكبر يوم مظهر الأسماء والصفات وأحكامها، ولهذا يقول سبحانه: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦]، وقال: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ ﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار: ١٩].

حتى أن الله سبحانه ليتعرف إلى عباده في ذلك اليوم بأسماء وصفات لم يعرفوها في هذه الدار، فهو يوم ظهور المملكة العظمى والأسماء الحسنى والصفات العلى، فتأمل ما أخبر به الله ورسوله من شأن ذلك اليوم وأحكامه، وظهور عزته وعدله، وفضله ورحمته، وآثار صفاته المقدسة، التي لو خُلقوا في دار البقاء لتعطلت، وكمال سبحانه ينفي ذلك، وهذا دليلٌ مستقلٌ -لمن عرف الله تعالى وأسماءه وصفاته- على وقوع

المعاد وصدق الرسل فيما أخبروا به عن الله، فيتطابق دليل العقل ودليل السمع على وقوعه).

ويقول في موضوع ثالث: إن الله سبحانه يحب أن يُعبد بأنواع التعبدات كلها، ولا يليق ذلك إلا بعظمته وجلاله، ولا يحسن ولا ينبغي إلا له وحده، ومن المعلوم أن من أنواع التعبد الحاصلة في دار البلاء والامتحان ما لا يكون في دار المجازاة، وإن كان في هذه الدار بعض المجازاة، وكمالها وتمامها إنما في تلك الدار، وليست دار عمل وإنما هي جزاء ثواب وعقاب، أوجب كماله المقدس أن يجزي فيه:

﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٢١].

فلم يكن بد من دار تقع فيها الإساءة والإحسان، ويجري على أهلها أحكام الأسماء والصفات، ثم يعقبها دار يجازى فيها المحسن والمسيء، ويجري على أهلها أحكام الأسماء والصفات، فتعطيل أسمائه وصفاته ممتنع ومستحيل، وهو تعطيلٌ لربوبيته وإلهيته وملكه وعزته وحكمته.

فمن فُتح له بابٌ من الفقه في أحكام الأسماء والصفات وعلم اختصاصها لآثارها ومتعلقاتها، واستحالة تعطيلها.. علِمَ أن الأمر كما أخبرت به الرسل، وأنه لا يجوز عليه سبحانه، ولا ينبغي لغيره، وأنه ينزه عن خلاف ذلك كما ينزه عن سائر العيوب والنقائص، وهذا باب عزيز من أبواب الإيمان فيفتحه الله على من يشاء من عباده ويحرمه من يشاء.

ومن هنا كان قول الله -في الحديث القدسي-: «**أنا الملك.. أين ملوك**

الأرض؟»[٥٣].

فيوم القيامة هو يوم ظهور أسماء الله وصفاته، ونفي كل ادِّعاء يناقض مقتضى أسماء الله وصفاته، وكمال إظهار الحق لا يكون إلا **بإقرار أهل الباطل بما كانوا عليه**، وفي هذا الإقرار جاء قول الله: ﴿ **وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ * وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ** ﴾ [إبراهيم: ٢١-٢٢].

ومع إقرار أهل الباطل تكون مُساءلة أهل الحق، ومنها مُساءلة كل من عُبد من دون الله: ﴿ **وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ * قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا * فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا** ﴾ [الفرقان: ١٧-١٩].

وفي إطار إظهار الحق يوم القيامة كانت مُساءلة المرسلين..

﴿ **يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ**

---

(٥٣) أخرجه البخاري (٦٥١٩، ٧٣٨٢) ومسلم (٧٢٢٧) كلاهما من حديث أبي هريرة.

ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

لتأتي بعد مُساءلة المرسلين.. مُساءلة عيسى عليه السلام..

﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ * قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ ﴾؟!

﴿ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦ ﴾ [المائدة: ١١٦].

فأكمل درجات الإقرار أن يكون بالأطراف التي يتعلق بها موضوع الإقرار، ومن هنا كان إقرار عيسى بالعبودية في يوم القيامة: ﴿ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ * وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡ * فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡ * وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٧].

وكان إقرار عيسى قبل يوم القيامة بالحق، وتحقيق كل مقتضياته بالفعل في الواقع.. كما كان الباطل فعلاً وواقعًا.